مجلة المجمع العلمي العربي

تشرين الثاني وكانون الأول سنة ١٩٤٢ شوال وذو القعدة سنة ١٣٦١

عظيم بني امية

كان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عظيماً في كل حالاته، ومن حسن طالعه أن أربعة من أولاده ولوا الخلافة بعده فدعي لذلك بأبي الأملاك وكان أولاده مثله من النابغين في سياسة الملك وحكم الشعوب والعناصر تحت لواء العربية والاسلام، وهم الخلفاء سليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وهشام ابن عبد الملك.

ومن يتصفح تاريخ الأمويين يقع الحين بعد الآخر على اسم مسلمة بن عبد الملك وما كان له من غزوات كثيرة إلى بلاد الروم والترك والخزر والسند، ومن ولايات عظام كاذربيجان وخراسان وأرمينية والجزيرة والسند والعراقين. وقد يشك من لم يقرأ الأحداث قراءة تدبر إذا كان مسلمة هو ابن الخليفة عبد الملك أو ابن رجل آخر اسمه عبد الملك كان من جملة قواد الأمويين العظام. بلى هو ابن الخليفة نفسه، النابغة الذي قل أن ولدت النساء مثله في عقله وحكمته وحسن إدارته وسياسته.

فإذا عرف الناظر أن مسلمة هو ابن الخليفة وأنه فرع تلك الدوحة الزكية وهو على هذه الصفات الغر يتساءل لِمَ لم يكن له اذاً حظ في الخلافة وهو ما هو لا يقل عن إخوته في جميع ما لهم من صفات ان لم يكن على صفات هي فيه أقوى منهم.

فالجواب ان مسلمة وإن عمل للخلافة طول حياته وعدّ من أساطين القواد الذين امتازوا بفتوحهم فقد كان فيه نقص فطري لا يمكن جبره بحسب عرف تلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأيام . وهذا النقص إن صح أن ندعوه نقصاً منعه من تولي رقاب المسلمين كافة ، وان استوفى شروط الإمامة ، وكان آخذاً بجميع صفات الخير فقضت عليه الأقدار ألا يعمل إلا تحت أيدي إخوته طول حياته ، فعمل لبيتهم العظيم لا لنفسه ولا لسمعته .

هذا النقص في مسلمة أورثته إياه أمه ، وأمه كانت أم ولد رومية ، وأبناء الجواري في بني أمية لاحظ لهم في الخلافة مهما بلغ من عبقريتهم وتفردهم بالمزايا التي يقل اجتماع مثلها في شخص ، فهو وعبد الله والمنذر وعنبسة ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد والباقون من أولاد عبد الملك أبناء حرائر . وطهارة الدم العربي شرط أعظم فيمن يتولى الخلافة الأموية ، ولا كمال إلا بدم عريق في العروبة من الأب والأم .

نعم كانت أم مسلمة السبب في تأخر ابنها عن الخلافة ، أما في الدولة الخالفة دولة بني العباس فما كان يلتفت إلى هذا الشرط في تولي الإمامة الكبرى ويكاد يكون معظم الخلائف من ابناء الجواري إلا رأسهم السفاح ، فالعباسيون خلاسيون والأمويون عرب أقحاح . ومن أمهات خلفاء العباسيين من كن زنجيات ، وكان لبعض أولئك الأمهات يد طولى في إصعاد بنيهم إلى دست الخلافة وقد يأتين بالغث الذي لا يستحق أن يخطب له الخطباء ، ولا أن تضرب السكة باسمه .

روى الجاحظ في البيان والتبيين أنه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة ، وان مسلمة كان شجاعاً خطيباً وبارع اللسان جواداً . وهذه الصفات التي خص بها تؤهله لأرقى المناصب في الدولة وهي الحكم وقيادة الجيوش . ولذلك سأل أخاه هشاماً يوماً كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل وأنت جبان ؟ فقال لأني حليم ولأني عفيف . ومسلمة جمع إلى الأناة والعفة بلاغة اللسان يستهوي بها العقول ، وكرم النفس يستميل به القلوب ، ولو أنصفنا لقلنا إن عبد الملك هو سبب حرمان ابنه الخلافة لأنه استولد أمة وتزوج من جارية غير مهيرة .

كان مسلمة على جانب عظيم من الحزم وقوة الارادة ، قال مرة ما أخذت أمراً قط بحزم فلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة علي ، ولا أخذت أمراً قط وضيعت الحزم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه إلا لمت نفسي وإن كانت العاقبة لي ، وقال ما أحمدت نفسي على ظفر ابتدأته بعجز ولا لمتها على مكروه ابتدأته بحزم ، هذا حزمه أما شجاعته فقد سأله أخوه هشام يوماً فقال : يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ قال ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه على حيلة ، ولم يغشني فيها ذعر سلبني رأيي . قال هشام : هذه والله البسالة ، وإذ عرف مسلمة بهذه الصفات النادرة كان يوجه في المهمات الدقيقة إلى الشرق والغرب وقد شتى وصاف في ضواحي القسطنطينية غير مرة .

استبطأ عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة في سيره إلى الروم فكتب اليه .

لمن الظعائن سيرهن تزحف سير السفين إذا تقاعس تجدف

فلما قرأ مسلمة الكتاب كتب اليه .

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

(ترمرم حرك فاه للكلام ولم يتكلم وزبنته الحرب صدمته) .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز كان مسلمة أمير المسلمين على أسوار القسطنطينية ، أمره بالقفول بمن معه خوفاً عليهم . ولطالما أوغل في أرض الروم وفتح حصونهم ومدائنهم مثل الطوانة وعمورية وسورية وقيسارية واماسية وفتح مدينة الصقالبة وأغارت عليه خيل برجان فغلبهم . ومنذ روى له أحدهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) قويت عزيمته على فتحها وقد بنى مسجداً في مدينة اندس على غربي خليج القسطنطينية بين جبلين بينها وبين القسطنطينية ميل واحد وكان يفاوض صاحب الروم أيام المهادنات وربما تهاديا ، وله آثار كثيرة في الحروب ونكاية في الروم وكان يجمع بين ما تقتضيه الحروب من تخريب وما يجب على الأمير أن يعمله في العمران .

لقبه خصومه بالجرادة الصفراء لصفرة كانت تعلو وجهه ، وكنيته أبو سعيد وأبو الأصبغ ويكنى بهما جميعاً ، وكان يكتب له سميع مولاه وكان هذا يقول إن مسلمة بن عبد الملك في الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام

روى ابن عساكر قال حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً فأصابهم فيه جهد عظيم فندب الناس إلى نقب فيه فما دخله أحد ، فجاء رجل من الجند فدخله ففتح الله عليهم فنادى مسلمة : أين صاحب النقب فما جاء أحد حتى نادى مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فجاء في الرابعة رجل فقال :أنا أيها الأمير صاحب النقب آخذ عليكم عهوداً ومواثيق ثلاثاً الا تسودوا اسمي في صحيفة ولا تأمروا لي بشيء ، ولا تسألوني ممن أنا . قال فقال مسلمة : قد فعلنا ذلك بك قال فغاب بعد ذلك فلم يره قال فكان مسلمة بعد ذلك يقول في دُبُر صلاته : اللهم اجعلني مع صاحب النقب .

ولمسلمة إلى هذا أدب غض وفضل حكمة وإصالة رأي روي عنه أنه قال مروتان ظاهرتان الرياش والفصاحة . ودخل إلى الوليد فاسترضاه من شيء بلغه عنه فرضي عنه وخرج مسلمة بعد المغرب فقال الوليد : خذوا الشمع بين يدي أبي سعيد فقال مسلمة : يا أمير المؤمنين لا مسريت الليلة إلا في ضياء رضاك . وكان يقول إن أقل الناس في الدنيا هَمّاً أقلهم في الآخرة هَمّاً .

كان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج وخاف أن يضجر قال لآذنه : ايذن لجلسائي ، فيأذن لهم فيفتن ويفتنون في محاسن الناس ومروآتهم ، فيطرب لها ويهتاج عليها ، ويصيبه ما يصيب صاحب الشراب ، فيقول لحاجبه : ايذن لأصحاب الحوائج فلا يبقى أحد إلا قضيت حاجته . روى هذا ابن عساكر وروى أيضاً انه كان بين مسلمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد بن عبد الملك مباعدة فبلغ مسلمة ان العباس يتنقصه فكتب اليه هذه الأبيات[1]

فلولا أن اصلك حين تنمى ... وفرعك منتهى فرعي واصلي
وإني إن رميتك هضت عظمي ... ونالتني إذا نالتك نَبلي
لقد أنكرتني إنكار خوف ... يضم حشاك عن شتمي وعذلي
فكم من سورة ابطأت عنها ... بني لك مجدها طلبي وحملي
ومبهمة عييت بها فأبدي ... حؤولي عن مخارجها وفضلي
كقول المرء عمرو في القوافي ... لقيس حين خالف كل عدل
عذيرك من خليلك من مراد ... اريد حياته ويريد قتلي

(١) في العمدة لابن رشيق وفي زهر الآداب للحصري ان هذه الأبيات قالها العباس لمسلمة . وفي رواية الزهر أول الأبيات :

الا اقني الحياء ابا سعيد ... وتقصر عن ملاحاتي وعذلي .

وروى شطر « يضم حشاك عن شتمي وعذلي » هكذا : يضم حشاك عن شيء وأكلي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاندري اذا كانت هذه الأبيات من نظمه فانهم قالوا انه لم يقل شعراً قط إلا هذا البيت ·

ولو بعض الكفاف ذهلت عنه لا غناك الكفاف عن الفضول

وقالو انه روي له شعر غير هذا · اما في النثر فله آيات تنم عن خلق طاهر وأدب ظاهر منها ما رواه الجاحظ قال كان عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر من أبين الناس وأفصحهم ، وكان مسلمة بن عبد الملك يقول إني لأنحي كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى بن عبد الله · وروى انه تكلم جماعة من الخطباء عند مسلمة فأسهبوا في القول ثم افترع المنطق رجل من اخريات الناس لا يخرج من حسن إلا إلى احسن منه فقال مسلمة : ما شبهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء الا بسحابة تبدت عجاجة · ومن كلماته اللحن في الكلام اقبح من الجدري في الوجه · وكان يكره كل لحانة ولا يجب ان يأخذ عنه · وقال : عجبنا من رجل احفى شعره ثم اعفاه ، او قصر شاربه ثم اطاله ، او كان صاحب سراري فاتخذ المهيرات (والمهيرات الحرائر الغاليات المهر)

كان مسلمة يشارك الأدباء في ادبهم كما يشارك رجال الجيش والسياسة بعملهم حتى لقد قال أنا أعلم العرب بثلثة يعني الأخطل والفرزدق وجريراً · اما احدهم فيجيء سابقاً أبداً يعني الأخطل واما الآخر فيجيء مصلياً يعني الفرزدق ، وأما الآخر فيجيء سابقاً مرة وسكيتاً مرة وهو جرير · وقيل له أي الشاعرين أشعر أجرير أم الفرزدق ، فقال إن الفرزدق يبني وجرير يهدم ، وليس يقوم مع الخراب شيء · ولطالما فاتش إخوانه وغيرهم عن شعر الشعراء فأبان عن ذوق عال · وقال يوماً لنصيب : أمدحت فلاناً ؟ فقال : نعم · قال : أو حرمك ؟ قال : فعل قال : فهلا هجوته ؟ قال لم أفعل · قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالعطية أجود من لساني بالمسألة · فوهب له ألف دينار ·

هذا هو رجل بني أمية وهذا ما وصلت اليد اليه من أخباره وهو في الحقيقة يحتاج إلى دراسة أوفى من هذه · ذكر من عنوا بتدوين سيرة مسلمة أنه ابتدع امراً جديداً من اعمال البر والخير لم يسبقه إلى مثله سابق · قالوا إنه اوصى بثلث ماله لطلاب الأدب وقيل بثلث ثلثه ، وقال ان الأدب صناعة محفوفة أهلها ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت دار مسلمة بدمشق في محلة القباب عند باب الجامع القبلي اي الجامع الأموي والغالب ان داره كانت قريبة من قصر الخضراء دار أمير المؤمنين معاوية ابن ابي سفيان وأولاده ، وتوفي مسلمة يوم الأربعاء لسبع ليال خلون من المحرم بموضع يقال له الحانوت في سنة إحدى وعشرين ومائة وقد رثاه الوليد بن يزيد بقوله :

اقول وما البعد إلا الردى امسلم لا تبعدن مسلمة
فقد كنت نوراً لنا في البلا د مضيئاً فقد اصبحت مظلمة
ونكتم موتك نخشى اليقين فأبدى اليقين عن الجمجمة

قالوا لما توجه مسلمة غازياً إلى الروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس (مسكنة اليوم) فأتاه أهلها واهل بويلس وقاصرين وعابدين وصفين ، وهي قرى منسوبة إليها فسألوه جميعاً ان يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم ، على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ، فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ، ووفوا له بالشرط ، ورم سور المدينة وأحكمه ، فلما مات مسلمة صارت بالس وقراها لورثته .

روى الطبري ان العباس بن محمد لما وجه المهديُّ الرشيد إلى الصائفة في سنة ١٦٣ خرج بشيعه وانا معه ، فلما حاذى قصر مسلمة قلت : يا أمير المؤمنين إن لمسلمة في اعناقنا منة . كان محمد بن علي مرَّ به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له : يابن عمِّ هذان الفان لدينك والفان لمعونتك فإذا نفدت فلا تحتشمنا . فقال لما حدثته الحديث : أحضروا من هنا من ولد مسلمة ومواليه . فأمر لهم بعشرين الف دينار ، وأمر ان تجري عليهم الأرزاق ثم قال : يا أبا الفضل كافينا مسلمة وقضينا حقه . قلت نعم وزدت يا أمير المؤمنين .

وهذا أيضاً مثال من جميل أخلاق مسلمة اعطى احد أعداء دولته ما يصعب على قائد من قوادها اداؤه ، فعرف له الخليفة العباسي ما قدمه لأحد اجداده من الخير فكافأه عليه اضعافاً مع شدة العباسيين على الأمويين ، ولكن المعروف لا يسع عاقلاً إنكاره . ومن عرفك في الشدة كنت أولى ان تعرفه في الرخاء .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net